



"أبو الشهيد.. ارفع رأسك"، كان الهاتف الأكثر ترداداً في تشيع الشهيد محمد أبهم السمان في الميدان بدمشق، وربما كان الهاتف الأكثر تأثيراً بوالد ووالدة وإخوة وأصدقاء الشهيد.

طافت روح الشهيد السمان (أمس الثلاثاء في أول تشيع له) فوق رؤوس مشيعيه، وبقي جسده المرفوع فوق لوح من الخشب بلا مأوى ليومين على الأقل.

كان من المفروض أن ينطلق موكب الشهيد ومشروع المظاهرة من جامع الدقادق في أحد شوارع الميدان، وقبل الموعد المحدد (أذان الظهر) بساعة تقريراً علمنا عبر اتصال هاتفي أن التشيع سيتأخر إلى أذان العصر.

اجتمع شباب ورجال، نساء وصبايا، تحت جسر الميدان بالقرب من جامع الحسن، لا سابق معرفة بينهم، ولكنهم تفاهموا بنظرات العيون، رغم أن عيون رجال الأمن والجيش المستندة على الرشاشات و6 من السيارات التي تحمل الأسلحة كانت تراقب على مسافة بسيطة لا تتجاوز الـ 300 متر، وهو العدد الذي ظهر لنا من مكان وقوفنا والذي علمنا لاحقاً أنه غيض من غيض مقارنة بالكم الذي انتشر في معظم شوارع المنطقة.

يمكنك أن ترى كل شيء في عيون المشيعين إلا نظرات الخوف، فالخوف وحده كان غائباً عن الساحة عند الساعة الثانية بعد الظهر، وبينما الجميع يتتساءل إلى أين يجب أن يتجه مع إغلاق رجال الأمن والجيش معظم الطرق المؤدية إلى جامع الدقادق، جاءت الإجابة من خلال شاب أبلغ بعض المنتظرين أن التشيع انتقل إلى جامع العيقوب بسبب احتلال الأمن للدقادق،

وأشار إلى حارة ميدانية صغيرة تؤدي إلى اليعقوب، وليختم قائلاً: "إذا صار ما صار وهجم الأمن دقوا أبي باب حواليك وفوتوا عليه، كل المنطقة أمان والناس معنا".

لم يستطع الكثيرون الدخول إلى الجامع على اعتبار أنه من أصغر مساجد المنطقة، وحتى تلك اللحظة لم يكن لأحد أن يعرف أين يقع جسد الشهيد الذي خبأه ثوار الميدان في أحد البيوت، وعند نهاية الصلاة بدأ التكبير يهدر خارج المسجد، لا مكبرات صوت ولا منصة يقف عليها أحد، إلا أن صوت "الهتيف" بالتعبير السوري يشعرك بأنه صوت لعشرة رجال معاً، ومع وصول وفود من مناطق ومدن أخرى كان الهاتف يعلو مرحباً ومستقبلاً " جاء وفد من الخالدية، وفد من القابون، وآخر من بربة" وهم الوفود الذين سمعت هتافات الترحيب بهم وربما جاء غيرهم إلى مكان آخر، حيث علمت فيما بعد أن تجمعنا لم يكن التجمع الوحيد، وإنما انتطلقت حوالي 6 مظاهرات من عدة أماكن في الميدان في محاولة لتشتيت الأمن وهو ما حدث فعلاً.

وفجأة ودون سابق إنذار، هجم رجال الأمن حاملين العصي ورمي القنابل المسيلة للدموع بكثافة بين جموع المتشيعين. وقبل أن يؤدي الدخان الكثيف الناتج عن تلك القنابل إلى أذى حقيقي بين المتظاهرين، قام عدد من الشباب بتوزيع على "كولا" على الناس ليغسلوا وجوههم بها (والتي أصبحت من المتعارف عليه أنها الحل الأرجع ضد الغاز المسيل للدموع)، وعلت أصوات الشباب من هنا وهناك "احموا النساء.. احموا البنات"، ولأجد نفسي مع الكثيرات محاطة بالشبان من كل الجهات، ودفعونا باتجاه منطقة "الحقلة" حيث تقع المقبرة التي كان من المفترض أن يتم دفن الشهيد بها.

شعرت بالخجل من شباب كشفوا صدورهم العارية للدفاع عنني وعن أخريات، وقبل أن أسترسل في شعوري ذاك، اكتشف الجميع أن رجال الأمن قد طوقوا المقبرة منعاً لدخول الجنازة إلى هناك، وما ليثنا أن سمعنا أصواتاً تصرخ: "تفرقوا واهربوا بسرعة" ولتأتي تلك الأصوات متزامنة مع أصوات الرصاص التي بدأت تكثر وتشعرنا بأن الموت بات قاب قوسين من أي واحد منا.

وببدأ الركض في حواري الميدان الضيقة والقديمة. ونقلت الهواتف النقالة الرسائل بين الثوار لمعرفة الشوارع الأكثر أمناً وأماناً: "عنا مغيمة كثير والمطر زخ.. شو الوضع عندك.."، ولم يتوقف الشاب عن الاتصال بهذا وذاك إلا عندما أمن لنا خروجاً آمناً من المنطقة ما كنا لنعرفها لولاده.

هو شاب لم أره في حياتي وربما لن أراه، حتى أني لم أعرف اسمه الحقيقي وربما لن أعرفه، هو شاب حمل مسؤولية إخراجنا من دائرة الخطر لمجرد أننا كنا بجانبه في تلك اللحظة.

الشهيد لم يدفن، والمظاهرة لم تنته. تواعد الجميع على اللقاء في اليوم الثاني لوداع محمد مرة ثانية على أمل أن تجد روحه الراحة في مثواه الأخير.

قبل 9 أشهر خفت ألا أجد ما أنتمي إليه، أنظر إلى أولئك الشباب الآن وأقول في نفسي: هل يستحق هؤلاء أن يموتونا، أنتمي إليكم.. أنتمي إليكم!

هم يموتون من أجل حريتهم، تلك الحرية التي انتشرت كالنار في الهشيم في مدن وبلدات سوريا، وهي وإن تأخرت في

الوصول إلى دمشق إلا أن وصولها جاء مدوياً يتنااسب مع دمشق وهيبتها.

المصادر: